الأبتر

ممدوح عدوان

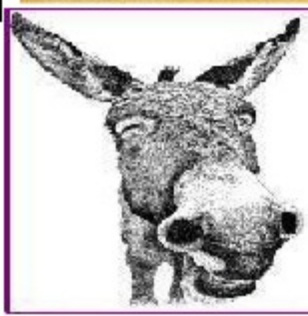

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

الأبتر

ممدوح عدوان

كي تطولَ الشمسَ

غص بين الترابْ

ياصديقي ، كالشجرْ

يغمد الجذرَ عميقاً ،

ثم يعطي للسحابْ

ساعدَ الجذع ، وغصناً

وثمرْ

محمود درويش

الفصل الأول

الشمس حادة .. والأرض حوله ظامئة يابسة يباس شفتيه وحلقه . كان القيظ يثير غضبه وغيظه وقرفه . تمنى لو يستطيع أن يتقيأ .. ان يهرب من نفسه ، او يجد إنساناً يحدثه عن أي شيء .. ان يتحدث بشيء يساعده في ابتلاع هذا الجيشان المبهم المليء بالقرف والارتخاء .

ورغم أن الشمس كانت تميل إلى المغيب ، إلا ان ذلك العجوز الذي كان متكئاً على حجر فوق قلل الرابية ، الترابية ، مطلا على الارض العطشى ، كان مايزال يحس بالقيظ . وكان هذا الاحساس يجعله يبقى حيث هو في هذا الاسترخاء العاجز دونما رغبة في الوقوف أو التحرك أو العودة إلى البيت .

جال ببصره في السهل المنبسط أمامه فرأى ان الاشجار ذاتها تحس ما يحسه من قيظ .. قدر ذلك من الالتواء الذي رآه واضحاً في نهايات الاغصان .. واعتقد انها مهيأة للذبول .

كان راضياً عن نفسه رغم ذلك . لقد اشتغل منذ الصباح .. وفرك جفنيه ليمسح ما ظن انهما يحملان من تراب .

لكنه الآن ، وفي لحظة الراحة ، بدأ يحتاج الآخرين وبدأت هذه الحاجة تلح عليه إلحاحاً مزعجاً .

لم يكن قد اهتم كثيراً لذهاب حسن الصالح . لقد ذهب كغيره . ليس هذا مهماً . صحيح انه غضب قليلا في الصباح عندما اكتشف الامر ، لكنه كان قد اعتاد هذا الغضب القليل مع النزيف البشري الذي اصيبت به القرية منذ الحرب .

كل يوم كان يستيقظ فيعرف ان عدداً من أهالي القرية قد نزحوا إلى دمشق .. وكان يراهم ، أحياناً ، فيشعر برغبة مبهمة بالبكاء .. ويتمنى لو قام إليهم يرجوهم البقاء . لكنه كان يظل مسترخياً . يعبيء غضبه بصمت ليفرغه في محادثة مع حسن الصالح .

وحين كانا يجلسان في المساء وحيدين ويحس بالشوق نحو أي منهم كان يكتم شوقه حتى عن حسن الصالح. لكنه كان يظل يدور بالحديث حتى يصل إلى ذلك الذي يشتاق اليه لحظتها .. وكان حسن الصالح يقول عادة « والله اشتقت عليه » فينهال العجوز بالشتائم : « قليل الاصل !! ما الذي يأخذه إلى دمشق ؟ ألم تعد تعجبه المنصورة ؟ أفي كل مكان يجد جلسة كهذه ؟ أتصدق انه كان خائفاً ؟ أقسم بالله انه ليس الخوف وحده . ومم يخاف ؟ من اليهود ؟ ها نحن هنا منذ الحرب ماذا أصابنا ؟ لا تصدق . لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » .

وحتى حين جاء ذلك الضابط الاسرائيلي ومعه بعض الجنود وأمروا أهل القرية ان ينزحوا وان الجنود سيعودون لقتل كل من يبقى إلى ما بعد ساعتين ؛ فقد عاد إلى بيته بعد ان سمع ما سمع و كأن الكلام لم يكن موجهاً اليه .

وحين عاد الجنود أدركوا ان قسماً من أهل القرية قد نزح . لكن الغالبية لم تزل في البيوت . وجمعوا أهل القرية كلهم ثم انتقوا ثلاثة شبان أوثقوهم أمام أهل القرية وأطلقوا عليهم النار ثم قالوا انهم سيقتلون كل من يبقى بالطريقة ذاتها . وحين رحلوا قام العجوز مع بعض الرجال بنقل الجثث ثم صلوا عليها ودفنوها . وبعد ذلك عاد إلى بيته حزيناً غاضباً دون ان يخطر له ان يرحل أو يخاف .

وبين يوم وآخر كان يمر في قريتهم نازحون من قرى أخرى يروون لهم روايات تقشعر لها أبدانهم عن القتل والهدم ومسح القرى عن وجه الارض . لم يكن العجوز يجد سبباً لتكذيبهم . كان قد سمع الكثير طوال حياته عن فظائع هؤلاء المحتلين لكنه لم يخطر له ، أبداً ، ان « المنصورة » يمكن ان تهدم أو أنه يمكن أن يقتل .

وكان الآخرون يهربون في الليل .

تسعة أشهر مع النزيف ثم شهر كامل مع حسن الصالح : مع القطرة الاخيرة التي تأرجحت طويلا ، واخيرا سقطت . « بحفظ القرد . لو كان فيك خير لما بقيت . وجودك وغيابك سيان . هل كنت تظن انني استبقيتك لحاجتي إليك ؟ افعل ما يحلو لك . آه لو ظل انسان واحد

فقط لاحكي له عنك » لكنه ، الآن ، يتمنى لو كان حسن الصالح ذاته موجوداً . جميلة جلسة المساء مع عجوز مثلي . كنا سنتحدث ، أو ربما نتشاجر . عشرة طويلة ورفقة عمر . أتقن كل منا مشاجرة الاخر . وتذكر المشاجرة الاخيرة .

— ما هذا ؟

— بذار

— بذار ؟

— طبعاً بذار . ألا تعرف ما هو البذار ؟

— ولم البذار ؟

— ياسبحان الله . حسن الصالح يسألني لم البذار

— أقسم بالله لم أعد أفهمك . ما هذا يارجل ؟ هل تفكر في البذار جدياً ؟

— وهل تراني أمزح ؟

— أريد ان أفهم : هل جرى لعقلك شيء ؟

— ياصلاة محمد . ما هذا المخلوق ؟ أأضربه فأساً أشق قرعتـــه ؟ أتريد ان تجعلني أفقد عقلي ؟

— يارجل ياخرفان . شغل هذا الرأس . هل يفكر المجنون في أن يجيء بذاراً في مثل هذه الظروف ؟

— أو لايأكل الانسان في مثل هذه الظروف ؟

— اذن فاقامتك طويلة من غير ثمر ؟

ولم لا ؟

— وهذا البذار للشتاء القادم ؟

— طبعاً . يجب ان نفكر في غدنا .

— لو كنت تفكر في غدك لرحلت .

— أعدنا الى الحديث ؟ لم لا ترحل ان كنت عاقلا الى هذا الحد ؟

— ألا ترى الموت محيطاً بنا ؟

— قلت لك لن أموت .

— ربك هو الذي يقرر ذلك .

— وأنا أقرر كيف لا أموت .

— أستغفر الله ، ما هذا يا ادريس ؟ تكفر أيضاً ؟

— أعني حين يقرر الله سبحانه وتعالى ان يأخذ أمانته هو حر . لكن حتى ذلك الحين لن أسمح لنفسي ان تموت جوعاً . سأموت بطريقة أفضل .

— ستموت بطلقة في مؤخرتك .

— وأنت ستموت لكثرة تفكيرك في الموت . وحين يأتون لقتلك لن يجدوا فيك مايقتل .

— ألم تفهم ، بعد ، يامجنون انهم يستطيعون قتلك في أية لحظة ؟ وانهم لم يقتلوك بعد لانك عجوز خرف لاخطر منك على شيء .

— عجوز واحد مثلك . اسكت .

ـ أنا ؟ ياخرفان يا قليل العقل .

ـ جميل غضبه . وجميل عدم فهمه . كنت أثور فعلا . لكن شجارنا لم يكن يدوم طويلا . لو جاء الآن لجعلته يصرخ غيظاً .

كان هذا أملاً خافتاً ، فهو يعرف ان حسن الصالح قد رحل . وانه قد ظل وحيداً كهذه الشجرة .

لقد داخله الشك دائماً في ان حسن الصالح لن يبقى طويلا . لكن ظل حتى النهاية ثم ذهب . كان حسن الصالح كثير التخوف . كان يخاف من كل ما يسمع لانه يصدق كل ما يسمع . حتى ما قاله له ذلك الجندي اليهودى من أن هذه الارض لليهود وانهم قادمون لاستردادها .

وهل سمعت يا ادريس ؟ يقولون ان الارض يهودية .

يومها ضحك ادريس حتى آلمه حنكه ، ثم شرح له انهم يكذبون وان هذه الارض لهم . لادريس وحسن الصالح وخالد الاحمد وهلال البشتاوى ، وان هؤلاء طبعاً ، ليسوا يهوداً . وان ذاكرتهم لا تجد أحداً سبق له ان فلح هذه الارض غيرهم . وانهم لم يكونوا يهوداً في أي يوم .

لكنهم يقولون انها يهودية منذ آلاف السنين .

وضحك مرة اخرى ثم أضاف ساخراً ، اذن سيدنا محمد يهودي وابو زيد الهلالي وعنترة بن شداد وذياب بن غانم كلهم يهود . هل تصدق هذا الكلام الفارغ ؟

هيه . الابله . خائف دائماً . ما الذي يخاف عليه بعد هذا العمر؟ صحيح انه كلما كبر الانسان في السن كلما ازداد تشبثاً بالحياة . كان يخاف على نفسه وعلى الذين رحلوا

— هل هم في امان ؟

— طبعاً في أمان . لمادا تشغل نفسك بهم ؟

— قلبي عندهم يا ادريس .

خائف على كل شيء في هذه الحياة و كأنه ربى كل ما فيها بتعبه . حتى أنا .

— وأنا ايضاً يا حسن ؟ أنا أكبر منك بعامين . لا تنس ذلك . فلا تخف علي .

— مجنون مثلك يخاف عليه الطفل . أين كنت ؟

— ما الذي أيقظك في هذه الساعة ؟

— سمعت صوت اطلاق نار فجئت اطمئن عليك . وحين لم أجدك في البيت خفت عليك .

— خفت علي ؟ أم خفت على نفسك ؟

— أين كنت .

— خرجت أتفرج . ليس هناك شيء . اليهود يعملون مناورة .

— تتفرج ؟ مجنون . والله العظيم مجنون .

— ولم لا اتفرج ؟ سأقول لك الحقيقة . أنا كل يوم آتي الى هـــذا المـكان لاتفرج .

-- على اليهود ؟

— لا : أنظر الى أضواء دمشق .

والتفت من مكانه صوب دمشق فلم يجدها .

في الظلام ستظهر أضواؤك المرتجفة .

وظل ينتظر .

★

الفصل الثاني

كل ما كان في قلبه من حب للبشر وللاولاد والزوجة سكبه عليها. كان يقضي ساعات طويلة وهو يحدثها أو ينظر اليها صامتاً وكأنه يصغى لحديثها .

أنت أيضاً وحيدة . ولكن لا بأس . أنا معك . لاتخافي . ومد يده يمسح جبينها ورقبتها . العجل ميت منذ الحرب وزوجته ميتة منذ عامين . هاجر الاهل والاولاد والجيران . وكانت البقرة هي كل ماتبقى له .

ورغم انه كان يحبها ذلك الحب كله ، ويجد تلك اللذة في محادثتها ؛ إلا انه ، أحياناً كان يخشى ان ينظر في عينيها. كان يرى منها اتهاماً له . وسؤالا قاتلا عن ابنها .

حين نفق العجل أيام الحرب سلخه وحشا جلده بالتبن . ثم علق « البوّ » في البيت ليضعه أمامها كلما أراد ان يحلبها . وخلال عمله ذلك كان يخشى ان ينظر في عينيها . كان يحس انه يسرقها بعواطفها . وهذا هو الشيء الوحيد الذي كان يعكر صداقتهما .

ولم يكن يجد لذة تعادل لذة خدمته لها إلا حين كان يعمل في الارض واليوم عمل حتى المساء . والبقرة أكلت جيداً وشربت . . لكنه كان منزعجاً .

لماذا نظر اليك اليوم هذان الجنديان بتلك الطريقة ؟ هل دار في رأسيهما ان يأخذاك ؟ معاذ الله . كل شيء ولا أنت . تصوري ان أبقى وحدي . بعد ان ذهب الاولاد والجيران ما الذي بقي غيرك ؟

ولم يرض ان يجرها بالحبل ، بل وضع يده على رقبتها .

حين اقترب من البيت أحس بالجوع . كلما اقترب من البيت أو طالعه منظره يحس بالجوع . وهذا الاحساس لم يعتده حاداً ممزوجاً بالرغبة في البكاء إلا في هذه الايام . . رغم ذلك فانه حين يقترب من البيت ينتبه الى انه يسير وهو يضرب الارض بقدميه بشدة .

لقد عاودته ذكرى أيام زواجه الاولى : يوم كان يعود من الصيد حاملا مجموعة من العصافير . . وقد يكون موفقاً باصطياد أرنب . في ذلك الحين كان يلقي العصافير من أعلى الجدار دون أن يدخل البيت . وقد نبهته زوجته كثيراً إلى انها قد لا تنتبه للعصافير فتأكلها الهرة أو الكلب لكنه كان يعرف انها جالسة دائماً بانتظاره . لقد اعتادت منه هذا التصرف . ورغم انه كان ، دائماً ، يفضل الجلوس في البيت وقلما توجه الى الدكان لمجالسة رجال القرية ، الا انه في ايام الصيد فقط كان يذهب الى الدكان فيمضي ساعة أو اكثر في محادثة ابي هاني صاحب الدكان او في محادثة احد الجنود القادمين لشراء بعض الحاجيات ثم يعود الى البيت فيجد الطعام جاهزاً .

وحينما كان يعود من العمل كانت رائحة الطبخ تلاقيه قبل البيت بعشرات الامتار . كانت سيدة بيت ماهرة . كل من في البيت كان يحبها حتى البقرة . كانت تخور باحثه عنها وتتبعها من الحقل وإليه صامتة وتركن إليها ساعة الحلب .

ومد يده يتحسس عنق البقرة من جديد . وحين وصل البيت لم يدخلها مباشرة ؛ بل ربطها بالباب .. كان يريدها ان تتمتع بالغروب معه أو ان يتمتع بالغروب وهي موجودة .

لا شك انهما كانا يريدان التهام البقرة . هل خطر لهما انها وحدها؟ ربما كان أحدهما من قتل العجل أيام الحرب .. ربما كان أحدهما يقود طائرة في ذلك الحين .. وربما قدما متعمدين لسرقتها فهي بقرة مغربة . لولا نية السرقة لما فرجئا بوجوده ، وإلا لماذا ضحكا بتلك الطريقة ؟

عاوده الغضب الذي تملكه في الصباح عندما رآهما . لقد تفجر غضبه عندما غرقا في الضحك وعجزا عن تمالك نفسيهما . كانا يضحكان منه بلا شك . ولكن ما الذي فيه يثير كل هذا الضحك الوقح ؟ هل لانني عجوز؟ كيف يبدو الانسان بعد الستين ؟ أليس من الطبيعي ان يكون عجوزاً ؟ اليس أبواهما عجوزين ؟ اللعنة على آباء آبائهما . لو عرفا عمري الحقيقي لما ضحكا . ان اي رجل في سني يسعل طوال النهار والليل ويحني ظهره كالدالية .

ما الذي اضحكهما ؟منظره؟ان منظره يدعو الى الاحترام ،هو متأكد

من ذلك . فجميع أهل القرية يقفون له عندما يلقي السلام وجميعهم يلجؤون إليه لحل المشكلات . وحتى تلك المشكلات التي يكون ابناؤه وابناء اسرته واقاربه طرفاً فيها .

إذن لماذا اغرقا في الضحك ؟ هل ضحكا لانهما سيفاجئانه بسرقة البقرة ذات يوم ؟ والتفت اليها : « سأحميك بعيني » . وعلى اية حال هذا أمر لا يثير الضحك بهذا المقدار . هذه قلة حياء ، هل سخرا من كلامه ؟ انه واثق انهما لم يفهما الا القليل مما قاله . فأطولهما كان يعرف بعض الكلمات العربية بينما كان الآخر يراقبه بسخرية بليدة ويتكلم بلغة لعينة لم يفهم منها شيئاً .

ثم لنفرض انهما كانا يفهمان العربية تماماً . ما الذي قلته مما يضحك أنا رجل أزن كلمتي قبل أن أقولها .

لقد رفع رأسه حين سمع الصوت . ولما رآهما كانت الحرب قد خرجت من ذهنه فانتظرهما دون قلق . تصورهما في البداية جنديين سوريين .. وقريته اعتادت استقبال هؤلاء الجنود في دكان ابي هاني وفي الازقة وعند العين . . كان الجنود قسماً من القرية .. جندي تزوج فتاة منها .. آخر حاول الاعتداء على فتاة .. جنود يتعرضون للفتيات الذاهبات الى العين .. آخرون يبحثون عن امرأة تغسل ملابسهم بالاجرة . عدد من اهالي القرية يحبون الجنود لانهم يحمون الحدود ، آخرون يكرهونهم لأنهم يسرقون المواسم أو يفسدون الاراضي بالطرقات والحفر !!.

لذلك توقع أن يعبرا به دون كلام . ولكن هذا التوقع لم يدم أكثر من لحظة . تذكر بعدها الحرب والهزيمة وادرك انهما من جنود العدو . وعندما حدق نحوهما مستغرباً رأى في وجهيهما دهشة مغيظة لم يستطع تفسيرها .

كان أول من رأى العجوز ذلك الشاب الأشقر القصير الذي لكز رفيقه بذراعه مشيراً نحو العجوز ، ثم اقتربا والضحكة ترف على وجهه الطويل .

— مرحباً .

قالها الطويل وهو يتباهى أمام صاحبه بأنه قال كلمة عربية .

— مرحباً .

أجاب العجوز بجفاف ولا مبالاة .

— ما هذا ؟

— وجد العجوز السؤال على قدر كبير من الغباء . ولما كان السؤال لا يحوي تهديداً أو سخرية بل استفهاماً جاداً فضل ان لا يجيب وعاد إلى عمله متجاهلاً وجودهما .

لقد داخله شيء من الخوف عندما رآهما يقتربان . فهو لم ير الجنود الاسرائيليين طوال حياته حتى جاءت هذه الحرب وفوجيء بأنهم شباب شقر وجميلون . لكنه لم يعرف بعد كيف يمكن أن يتحدثوا خارج

نطاق التهديد . ولم يعرف ماذا يمكن ان يثيروا في نفس الانسان زيادة على الخوف والكراهية . لكنه الآن وهو يسمع هذا السؤال الغبي أحس انه يحتقرهما . وسر من نفسه ، اذ وجـــدها في موقع القوي . إذ هل هناك انسان يفهم كم يبلغ ثلث الثلاثة الا ويعرف انه يحفر ساقيـة

— هيـه .

صاح الأشقر القصير فالتفت العجوز مستفهماً . وأشار الطويل بيده اشارات متعددة توحي بالساقية التي لم يستطع ان يجدها في المفردات التي يعرفها .

— ماء ؟

هز العجوز رأسه موافقاً .

— لماذا ؟

يارسول الله ، كاد رأسي ينفجر عندما سمعت هذا السؤال . لماذا يحفر الانسان ساقية ؟ ألا يعرف الحمار لماذا يحفر الفلاح ساقية ؟ ومرة أخرى لم يجب .

عاد الطويل إلى الحديث بركاكة :

— انت وحدك .

ورفع العجوز رأسه غاضباً .

— كيف عرفت ؟

— أعرف .

قالها الجندي باسماً . ولم يجد العجوز ما يقوله فتابع الجندي :

— أنت وحدك . لماذا تتعب ؟ لماذا تحفر الساقية ؟

كان يستطيع أن يستمر في الكلام أكثر من ساعة إجابة على هذا السؤال لكنه أحس سلفاً انهما لن يفهماه . فأجاب بطريقة توضح مقدار مايعتقد انهما غبيان :

— من أجل الماء .

— ولكن لماذا الماء ؟

كان الطويل ، الآن ، يعتقد ان العجوز غبي .

— لكي أسقي الأرض .

— ولكن انت وحدك . أليس كذلك ؟

— نعم .

وتوجه القصير بلهجة جادة إلى زميله وتحدثا باللغة التي لم يفهمها والتي جعلته يحس بالغيظ و كأن شخصاً يغتابه . والتفت الطويل إليه :

— أين نبع الماء ؟

أشار العجوز بيده إلى النبع القريب ، فذهب القصير مسرعاً وبيده مطرتان لإملائهما . بينما قرفص الطويل قربه وبدأ يكلمه :

— لماذا تتعب نفسك بالحفر ؟ أنت وحدك .

نظر إليه العجوز بهدوء وأخذ يتملى وجهه . كانت ذقن الجندي الشاب بحاجة إلى الحلاقة ، وكان وجهه نحيلا . وتمنى ، بغتة ، لو يضربه بهذه الفأس بين عينيه ، كان يحس انه غبي غباء يجعل دماءه تغلي .

— أنا لا أفهم لماذا تعمل ؟

ومع ذلك يقولون انها أرضهم ليت حسن الصالح هنا ليسمع بأذنيه . معذور أيها الجندي إذ لاتفهم لماذا أعمل . لو كانت لك أرض تعمل بها لفهمت .

والتفت إليه ثم بدأ يشرح له مستخدماً يديه ليتأكد من ان هذا المخلوق سيفهم أخيراً .

— الحرب وقعت ، قنابل كثيرة سقطت ، أتفهم ؟

هز الشاب رأسه وهو يسمع باهتمام ظاهر ، وتابع العجوز وكأنه يشرح أمراً معقداً لطفل صغير .

— مات أطفال ونساء ورجال . ماتت حيوانات أيضاً ، أتفهم ؟ ابن هذه البقرة مات في الحرب ، كان ابن شهرين أتفهم ؟

— أفهم .

— انتهت الحرب وجاء جنود مثلك أمرونا بالرحيل ، وأطلقوا النار على ثلاثة شباب لأنهم لم يرحلوا ، أتفهم ؟

— أفهم ولكن .

ـ لذلك خاف الجميع ورحلوا ، أتفهم ؟

ـ أفهم ، أفهم ، وبقيت وحدك ، ما الفائدة من عملك ؟

ـ الساقية ضرورية ، كانت القرية ستشقها لولا الحرب ؟

ـ لكن الجميع ذهبوا ، فلم الساقية ؟

ـ سيسقون أرضهم بها عندما يعودون .

ـ يعودون ؟

ـ طبعاً . لقد تأخروا قليلا . ولكن لا بأس انني أتوقعهم اليوم أو غداً .

وانفجر اللعين بتلك الضحكة الصاخبة . ما أثار غيظه هو ان الضحكة كانت صافية صادقة نابعة من قلبه . وقد كاد يفقد توازنه وهو مقرفص لكثرة ماهزه الضحك وأثاره . هل قال شيئاً يثير كل هذا الضحك ؟ وراح العجوز يرقبه وهو يشك ان في هذا الرجل مساً . إلا ان الجندي ، وسط ضحكاته ، نادى زميله بصوت عال وكان قد عبأ المطرتين وعاد .

أندريه .

ثم أشار له وهو يتحدث بكلمات يقطعها الضحك . واقترب القصير متهيئاً للضحك وبدأ الطويل يشرح ثم انفجر الاثنان من جديد .

نظر إليهما باستخفاف حين استطاعا تمالك نفسيهما . ثم قام الطويل

فتناول مطرته وقال وهو ينفض التراب عن مؤخرته :

— أكمل الحفر . نحن هنا . لاتخش شيئاً .

وعاد إلى الضحك من جديد وهما يبتعدان . وحين مرا بالبقرة رآهما يمعنان النظر إليها ، وكان العجوز قد توقف لمراقبتها متحفزاً ، انتظر ان يخطو أحدهما خطوة وأحدة صوب البقرة ليريها كيف يكون الضحك . هذا الشاب معتز بنفسه أكثر مما يجب . انه فخور بهذا المسدس الذي يحمله ، وصاحبه مثله ، لو اقتربا من البقرة لرأيا ماذا سينفعهما هذان المسدسان . هذه الفأس كانت ستعلمهما جيداً ، وشد عليها بقبضته .

وفيما كان مستلقياً مع الغروب خطر له انهما يراقبانه من مكان ما ، وانهما غارقان في الضحك من جديد وبالصخب ذاته

المخزي في الأمر هو انهما يعتقدان انني في حاجة إليهما ، واستعاد كلمات الطويل : « لاتخش شيئاً » أأنا أخاف ؟ وممن ؟ ومن سيطمئنني ان خفت ؟ هذا القرد ؟ لقد عرفت من الخوف مالم يحلما به ، لكنه خوف من نوع آخر ، كان يخاف الدرك لكنه يواجههم وهذا سرخوفه بينما خوف الآخرين يدفعهم إلى التواري عن أنظار الدرك ، ومرة خاف كثيراً وهو يعبر مخاضة ، خاف ان تجرفه المياه ، خاف وهو يعبر بينما خوف زملائه منعهم من النزول إلى الماء ، خاف مثل أهل القرية يوم الحرب ، خاف ان تصيبه قذيفة أو شظية و طلقة ، خاف ان يتهدم بيته ،او تحترق مزروعاته ، وحين اجتمع أهل القرية سرت موجة أكبر من الخوف في الجميع ، واقترح بعضهم النزوح إلى دمشق فاستنكر هذا

الاقتراح مع المستنكرين ، وظل في القرية مع خوفه ، وحين كان يأتي إليه من يقدم مبررات للنزوح : «لقد قتلوا فلاناً وفلاناً وسيقتلوننا.. الحرب عمياء.. ابعد عن الشر وغن له .. » كان يحس ان هذا الكلام غير مقبول وغير مقنع.. ولما لم يكن يملك الحجة الكافية للمناقشة أو الرغبة في خوض جدال من هذا النوع كان يترك الجلسة خانقاً ، وهكذا عاش مع جراح القرية ونزيفها المستمر دون ان يقوى على إيقافه حتى وصل النزيف إلى حسن الصالح .

وزاد الطين بلة قدوم نازحين من قرى مجاورة ، عبروا قريتهم كالسيل فجرفوا معهم عدداً لا بأس به بأحاديثهم وبموجة الذعر التي خلقوها بأحاديثهم عن تهديم القرى والقتل دون تعيين والخوف على العرض والاطفال ، أما الارض فلم يكن احد يتحدث عنها . فيصرخ فيهم وهم يحملون ما يقدرون على حمله :

— الى اين ياجماعة .

— سيأتي دورنا .

— والارض

— ماذا نفعل ؟ يرزقنا الله . المهم سلامة العرض والاطفال .

— لا تخشوا شيئاً . من له عمر لا تقتله شدة . ان ذهبتم من سوف يعيد تعمير بانياس وكفر حارب وعين زيوان والمنصورة . ظلوا لتتعاون .

لم يكن لدى أحد صبر للاستماع . مجانين . لايرون للحياة إلا وجهاً واحداً . كان عليهم ان يعيشوا قدر ما عشت ليعرفوا الحياة على حقيقتها. ليعرفوا كيف جاءت « ثلجة الاربعين » فلم تترك أخضر على وجه الارض ، وكيف نما الشجر من جديد . المهم ان الجذور كانت ما تزال في التربة . اطفال .

وهيأ نفسه للسخرية منهم . أبو علي . وتملكته رغبة مفاجئة في الضحك وهو يتصور ابا علي منكمشاً متعرق الجبين غير قادر على الرد على سخريته ونكاته . سأعيد على مسامعه كلماته التي قالها أكثر من مرة:

— والله يامرحبا بالموت .

كان يقول ذلك كلما دار الحديث عن الحرب ، ايه يا أبا علي . أنا اعرف انك كريم وابن عالم . لقد ذهبت الى دمشق لتستقبل الموت . أليس كذلك .

وغرق العجوز الوحيد في الضحك . وارتفعت ضحكته إلى قهقهة. وفاجأه صوته فعرف انه وحيد ، فسكت وقد جثم عليه الضيق . وازداد إحساسه بالوحدة وهو يتصور ان الجنديين الاسرائيليين يرقبانه من مكان ما . فقام الى البقرة وجر الحبل الموبوط الى عنقها ثم أدخلها إلى البيت .

الفصل الثالث

كان ما يزال ، رغم الاعوام الستين التي اجتازها ،قوي البنيةمنتصب القامة ، كان من ذلك النوع من الرجال الذين لا تدخل الشيخوخة إلى أجسادهم ، بل تكتفي بالمسح قليلاً على وجوههم فتجعدهـــا وعلى الشعر فيشيب .

ولم يكن من ينظر إليه وهو يسير إلى الحقل يجر بقرته ليقدر عمره بأكثر من أربعين عاماً .

ما كاد يصل إلى الحقل حتى ربط البقرة وتناول الفأس وبدأ يعمل. كان يريد ان يحفرحول جذوع الدوالي كما هي العادة كل عام . فالاشجار كالاولاد يجب ان يعتنى بها حتى تشب . وكانت الشمس قد ارتفعت في الافق عند ما انتهى من آخر دالية .

لقد بدأ الحفر حول الاشجار منذ ان ظل مع حسن الصالح. وحسن الصالح كان عاجزاً عن العمل يجلس قربه في ظل شجرة يدخن ويحدثه. وكلما ضجر من الحفر حول الدوالي توجه إلى الساقية وعمل بها . وهو اليوم يتجه إليها نهائياً بعد ان انتهى من الدوالي .

توقف أمس عن العمل بها حين وصل إلى تلك الصخرة التي اعترضت الساقية الجديدة المتجهة إلى شجرة الجوز . اذ ليس من المعقول ان يظل يسقي هذه الشجرة بالتنكة والماء قريب منها وهي متمكنة الجذور . وإذا وصلت الساقية استطاع ان يزرع مسكبة من البندورة ومسكبة من الباذنجان يؤمن بها خضار الصيف . وحين يأتي الخريف يبذر الحبوب التي احتفظ بها .

أحس انه تأخر قليلاً في زراعة البندورة والباذنجان . ولكن هذا ليس مهماً . المهم ان يصدق معه اهل « نقيب » ويجلبر له الشتل .

هذه الصخرة اللعينة ، كيف سأرفعها ؟ كان يستطيع ان يدور بالساقية حولها . إلا انه حين جسها في البدء بضربتين خفيفتين بالفأس تراءت له سهلة الاقتلاع ، لكنه عمل بها امس اكثر من ساعة وها هو اليوم يجهد نفسه بها دون فائدة . ولم يمل . لن أدور بالساقية حولها . لماذا أبقيها في أرضي وأقتل أرضاً اخرى بالساقية ؟

حفر حولها من جميع الجهات ضرب الفأس تحتها ووضع حجراً تحت الفأس وضغط دون فائدة . ادخل مقبض الفأس تحتها ورفع فسمع طقطقة المقبض . وتوقف خشية ان ينكسر . «ما هذا الذنب ؟» ترك الفأس ووضع يديه تحتها وبدأ يرفع ، المصيبة انها تهتز قليلا . الحمد لله ان حسن الصالح ليس هنا وإلا لتفلسف بتعليق ساخر حول عجزي

ولضحك حتى بان فكه الخالي من الاسنان ودمعت عيناه . كل مرة يعجز فيها عن فعل شيء ويراه حسن الصالح يتشاجران .

كفاك مكابرة يا ادريس . ختيرت . دعها للشباب راحت عليك .

– واحد مثلك تروح عليه .

– إلى متى العناد ؟ ساعة شغل تتعبك . اجلس وارتح يارجل . ياطماع ، هل ستأخذ معك شيئاً الى القبر ؟

– وهل تراني أشتغل لكي أفتح بنكاً ؟

– مالك ولهذا التعب ؟ لقمة فمك تكفيك .

– اقسم بالله لم أعمل يوماً في حياتي من أجل الموسم . ولكن هذه الأرض لايجوز ان تبقى هكذا !.

– ولماذا كنت تجن حين تمحل الأرض ؟

– لأنني لا أريد ان يضيع تعبي هباء . الموسم مثل الذرية ، ألا تتألم حين تسقط امرأتك جنيناً فتحرمك ولداً ؟

ويضحك حسن الصالح ساخراً : من أجل هذا تعمل إذن ؟

– قسماً بقبر النبي لا أتذكر انني تركت الشغل يوماً بسبب التعب . أحس فقط انني اكتفيت ، مثلما تكتفي من الأكل أو من زوجتك .

ويضحك الخبيث بسخرية . كلهم كانوا يضحكون حين يتحدث بحرارة عن العمل . هذا هو الشيء الذي لم أستطع شرحه لهم .

والتفت بغتة فلم يجد أحداً حوله . كان العرق يتصبب من وجهه . ولا يدري لماذا كان يتوقع أن تصطدم عيناه بعيون الجنديين الاسرائيليين . انه يحس دائماً انهما يراقبانه . انهما يفعلان ذلك دون شك ، ودار بنظره في التلال البعيدة وهو يمسح جبينه بكمه . ولم يستطع ان يحدد مكانهما اذ لم يكلف نفسه عناء النظر إلى يد الجندي وهو يشير إليه « نحن هنا قريبون منك » على أية حال ليس من المعقول ان يصدق في اشارته إلى مكانه . فهو عسكري . ولن يدلني على مكانه بهذه البساطة . فليضحك قدر مايشاء . ليس هناك ما يضحك على أية حال . ألقى نظرة على البقرة وعاد إلى الصخرة يحاول رفعها .

في الحكايات يجد الانسان تحت صخرة كهذه كنزاً . وأحس بالألم في زنديه و كتفيه . لو كان حامد هنا لساعدني . حامد شاب وهو قادر على رفعها وحده أو رفعها معي .

ترك الصخرة وجلس يدخن لفافة في ظل شجرة الجوز . كانت الشمس حادة تحرق ذنب العصفور وهو ينقل بصره بين الارض والبقرة . كانت الارض تبدو كأنها تنبض ، كان يحس ذلك كبطن أمرأة حامل . اين يكمن هذا الخصب ؟ وما سره ؟ كيف تختلف أرض عن أخرى اختلاف امرأة عن اخرى . وتذكر ما كان يقوله لابنه : « الارض امرأة تحتاج إلى رجل فتحمل له وتعطيه . والذي يستحيي من ابنة عمه لايرزق بولد . الارض التي لانهتم بها ولانسكب فيها عرقاً تهملنا وتخوننا ، على الأقل لاتعطينا خبزاً ».

ومد بصره إلى الحقول البعيدة فتملكته غصة باكية . كانت الحقول تموج بقمح كثيف دون عناية ومعظمه ذو سنابل فارغة . حدثت الحرب قبل الحصاد . معظمهم لم يستطيعوا جني محاصيلهم ، تساقط القمح في الخريف ثم نما في الشتاء والربيع . وها هو الآن كثير العدد قليل الفائدة ، الارض رغم إهمالهم لها أنبتت لهم قمحاً ، أرض خصبة تعالوا انظروا يا كسالى ياناكري المعروف .

القرية أيضا فارغة ، بصره ينتقل إليها فتنبعث في قلبه الرهبة . قرية خاوية دون إنسان . لماذا أبقى اليهود عليه فلم يطردوه ولم يقتلوه ؟ ألأنهم يعتقدونني عاجزاً عن إيذائهم ؟ أم أنهم يبيتون لي أمراً ؟

لم يستطع قبول فكرة أنه مهمل لانه عديم الضرر لهم . وحين رأى سيارة الجيب العسكرية تعبر القرية عرف انها تقصده فارتاح قليلاً .

وقفت السيارة غير بعيد عنه وأطل منها وجه :

ـ الحاكم العسكري يريدك في القنيطرة .

ـ يريدني أنا ؟

ـ نعم . أنت .

وبنزق مفاجىء : وماذا يريد مني الحاكم العسكري ؟ ألا ترى انني مشغول ؟

ـ لا ادري . طلب منا احضارك ، لا تخف .

ـ أنا لا أخاف إلا ربي ، عندي شغل ، لن اذهب .

ـ وقال ايضاً : إذا لم يأت معكم اجلبوه بالقوة .

ـ بالقوة ؟ ومن سيأخـــذني بالقوة ؟ أنت ؟ انزل وجرب عزمك وامسك بالفأس .

نزل اليه وجه باسم ودود :

ـ لا . لا . لن يستخدم القوة احد . لكن النزول إلى القنيطرة ضروري .

إذ ربما كانت لك وصية أو رسالة أو أي شيء آخر من دمشق

ـ من دمشق ؟

ـ نعم ، ربما ارسلوا لك شيئاً مع الهلال الاحمر

ولان العجوز : انتظرني قليلا ، سأطول للبقرة وآتي .

سار إلى البيت وأخرج حبلا طويلا ، ربط طرفه الاول الى قرني البقرة والطرف الآخر إلى شجرة الجوز ، كان الجندي يتبعه باسماً :

ـ لم تفعل ذلك ! هل تخاف ان تهرب البقرة .

ـ لا ، ولكن لكي لاترعى الرزق

ارتسمت على وجه الجندي ابتسامة خبيثة ذكرته بضحكات الجنديين نظر إلى البقرة مذعوراً ثم التفت إلى الجندي :

ـ وإذا سرقت البقرة ؟

ـ اطمئن ، لن يسرقها أحد صدقني .

ولم يجد مجالا للمناقشة ، أدهشه هذا اللطف ، حين كان أهل القرية هنا كانا أكثر شراسة . وفي المقعد الخلفي من السيارة كان غارقاً مع افكاره .

ـ هل انت وحدك في القرية ؟

التفت إلى السائق الذي طرح عليه السؤال ثم أجاب :

ـ نعم وحدي .

ـ ولماذا لم تذهب ؟

ـ والى اين اذهب ؟

ـ الى حيث ذهب الجميع

ـ ولماذا أذهب ، أنا هنا في بيتي ، والآخرون سيعودون

ضحك الجندي ثم التفت الى زميله ، تكلموا باللغة الغريبة التي لم يفهمها ، والتفت احدهم :

ـ هل تصدق انهم سيعودون ؟

ـ طبعاً . ولم لا يعودون ؟ هل يعقل ان يتركوا أراضيهم إلى الابد . !

ـ يبدو انك تحب اغنيات الاذاعة كثيراً .

اطرق بصمت . لماذا لم يخطر له انهم قد لا يعودون ؟ ربما لن يعودوا .

ولكن لمن يتركون هذه الاراضي التي تعبوا فيها وتشاجروا من اجلها ، عادت ضحكات الجنود تسحبه من شروده : لقد انتصرنا عليكم. ألم تسمع بنتائج الحرب ؟ هزمنا الجيوش العربية كلها .

ـ ما معنى هذا ؟

ـ يعني حطمنا إلجيوش العربية واخذنا ارضاً جديدة من سورية ومن مصر ومن الاردن .

ـ اخذتم ؟

ـ طبعاً ، ألم تعرف هذا بعد ؟

ـ أعرف ان جيوشكم وصلت الى القنيطرة لكن لا اعرف انكم أخذتم الارض .

ـ هذا يعني هذا ، وصول الجيش يعني أخذ الارض .

ـ لن تأخذوا أرضي :

ـ اخذناك انت وارضك .

ـ فشرت .

التفت كل منهم الى الآخر وترددت الكلمة « فشرت » كان واضحاً انهم لم يفهموا الكلمة و كان راغباً في ان يفهموا مايعنيه .

ـ انا لم اهزم

ـ ضحكوا من جديد .

ـ كيف ؟ هزم شعبك كله .

ـ وما الفارق ؟

ـ انني باق وان أرضي لي .

اقتربت السيارة من القنيطرة . ولاح له من بعيد النصب التذكاري . ذات يوم منذ اكثر من عامين وقف هنا ليرى حشداً . سأل أحد الموجودين :

ـ ما هذا ؟

ـ قبر الجندي المجهول .

ـ ياحرام . لم يعرفوا أهله ؟ هل يدفنونه الآن .

ـ لا . الجندي المجهول رمز لكل جنود الوطن الذين قتلوا دفاعاً عن الارض . هو جميع الجنود .

ـ وماذا يفعلون الآن ؟

ـ ضيف غريب يحيي جنود الوطن فيضع اكليلاً من الزهر فوقه .

اسمع البوق .

وانبعث الصوت . كان مؤلماً وغريباً كنواح مبهم أحسب لو ان الارض بكت وأعولت لما جاء صوتها إلا على هذا النحو .

ترى كم قتل من الجنود قبل ان يصل العدو إلى القنيطرة ؟ مد رأسه والتفت ليرى القبر فلم يشاهد سوى النصب التذكاري . وحين مرت السيارة بسرعة دار برأسه ملهوفاً كأنه كان يريد ان يلقي عليه التحية .

الفصل الرابع

عندما نزل من السيارة اقتادوه فوراً إلى غرفة الحاكم العسكري. كان رجلاً جميلاً يقرب عمره من الاربعين. واجهه الحاكم بابتسامة وطلب من الحاضرين الخروج وتركهما وحيدين. وهم يخرجون كان يشك ان في وجوههم ضحكاً مكتوماً.

بعد ان اصبحت الغرفة خالية الا منهما التفت إليه الحاكم وعيناه تبتسمان:

ـ كيف حال البقرة؟

أحس بمخالب تمسك قلبه. كيف عرف ان عندى بقرة؟ وماله ولها؟ قال متحدياً:

ـ تدعو بسلامتك.

ضحك الحاكم العسكري:

ـ أنت كما اتوقع.

ثم اكتست ملامحه جدية مفاجئة :

ـ اسمع يا إدريس .

ابن الكلب يعرف اسمي أيضاً . وتابع الحاكم .

ـ لقد رحل الجميع وانت وحدك الآن . انا أرى انه من الخطر ان تبقى هكذا ، بقرتك مغرية وربما جاء من يسرقها فيقتلك لأجل سرقتها . وربما فاحت الروائح من جثتك قبل أن نسمع بك .

ماذا يعني ؟ ولم هذه المقدمة ؟

ـ هل تسمعني ؟

نعم .

ـ أنا اقترح عليك ان تترك المنصورة

انا ؟

نعم . أنت . وأنت حر في ان تأخذ البقرة معك أو تبيعنا إياها . سأدبر لك من يشتريها بخمسمئة ليرة سورية . ما رأيك ؟ نحن لسنا أشراراً كما تعتقد . نستطيع ان نظل اصدقاء . ما رأيك ؟

لا

ـ هل ترفض صداقتنا ؟

لم تكن لهجته قاسية . ولم يكن العجوز يرى انه قادر على الاجابة أحس ان هناك شيئاً لم يفهمه . ظل صامتاً . قال الحاكم :

ـ الصداقة ليست موضوع لقائنا . ماذ قررت حول البقرة ؟

لا .

ـ أنا أنصحك وأنا في عمر ابنك ان تبيعنا البقرة وترحل .

حين كان يقف في مخفر الدرك كان يرتجف خوفاً منهم . كانت نظرات الدرك تسمره . أما الآن فلم يخف . أحس أنه يقف كرجل حقيقي أمام انسان غريب ولن يسمح له باهانته أو استغبائه .

ـ ماذا قررت ؟

ـ حول أي شيء ؟

ـ البقرة ، هل ستبيعها ؟ لا أظنها تساوي أكثر من هذا المبلغ .

ياصلاة محمد كم هو غبي أو ماكر . البقرة .. البقرة .. كأنها كل المشكلة .. وحتى لو بعته البقرة فلماذا أرحل .

ـ لا .

ـ انت تعرف اننا نستطيع أن نفعل مانريد وبالقوة . لكننا نقدر كبر سنك . ونحن ننصحك أن ترحل .

ـ إلى إين أرحل يارجل ؟

ـ إلى دمشق ، حيث رحل الباقون .

ـ الباقون سيرجعون قريباً .

ـ دعني أوضح لك الأمر . لن نسمح برجوع أحد . ولو كنا

تريدهم هنا لما طردناهم . لقد رأيت ولا شك بعض التصرفات القاسية من جنودنا حين كانت القرية مليئة . إنها الحرب . ولكنني لا أظن ان هناك من يزعجك الآن لأنك رجل عاقل وطيب . نحن الآن نريد أن نستفيد من المنصورة وبعض القرى الأخرى . فلا تحلم ان يعود أحد . ان جيش الدفاع الاسرائيلي سيبقى حيث وصل .

— وما علاقة البقرة بهذا كله ؟

— يعني ان عليك ان لاتنتظر أحداً .. أي أن ترحل ، ونحن سنساعدك بدفع ثمن لبقرتك . هـــذا لم يحدث في تاريخ الحروب من قبل .

— والأرض ؟ انك تنساها دائماً .

— لاتطمع . الأرض لن نشتريها .

أحس بالاهانة ، وشعر ان العرق بدأ ينساب بين كتفيه .

— أنا لم أذكر الأرض لكي أعرضها للبيع . أنا لم أبق أصلا من أجل البقرة بل من أجل الأرض . البقرة والأرض شيء واحد . بماذا سأفلح أرضي لو بعت البقرة ؟ انني أفكر أصلا بشراء بقرة أخرى من أجل الفلاحة .

— نحن لايهمنا هذا الكلام كله .

— اسمع ، هذه الأرض أرضي . وليست أرض أبيك . لقـــد

قضيت عمري كله فيها ، لن أرحل ، ولن أبيع البقرة .

كان حماس العجوز طريفاً . وأحب الحاكم العسكري ان لايبتز الحديث .

– يا ادريس ، حاول أن تفهم – هنا أصبحت لهجة الحاكم العسكري جادة – ولا تجبرني أن أكون قاسياً معك . نحن نريد أن نبني في القرية كيبوتز . وسنبدأ العمل بعد أيام . تستطيع أن تأتي وتعيش في القنيطرة . وسندفع لك ثمن الأرض أيضاً ، هل هذا يرضيك ؟

هذا المخلوق لايمكن التفاهم معه ؟ إلى القنيطرة ؟ وما الفارق بين أن أترك المنصورة إلى القنيطرة أو إلى دمشق ؟ الطريق إلى القنيطرة يوصل إلى دمشق .

– لن أبيع . ولن أرحل .

وأحب أن يكون أكثر وضوحاً وإقناعاً :

– انت لاتفهمني . هذه الأرض لي . وأنا حر في أن أبيعها أو أبقى فيها . وسأبقى . لم يخطر لي طوال عمري أن أبيع منها شبراً .

– انك تنسى الحرب دائماً .

وانفجر ادريس :

ـ انتم قهرتم الجيش ولم تقهروا الأرض ، انتصاركم لايعني انكم تستطيعون أخذ أرضي ، أنا ليس لي إلا الله وهذه الأرض ، أنت لاتدري ماتعنيه لي، لقد دفنت فيها خمس بقرات وثورين وابناً وزوجة انها خصبة . وأنا أعرفها حبة حبة ، فيها عمري كله عمر من الشقـــاء والعرق والموتى .

وخشية أن يبكي تمالك نفسه وهدأ لهجته :

ـ لن أبيـع ولن أرحل . اقتلوني إذا شئتم ، أنا باق في المنصورة حتى يعودوا .

وصاح الحاكم العسكري : قلت لك لن يعود أحد ، ألم تفهم ؟ ارحل إلى دمشق وستعوضك الحكومة السورية ، قل لهم إنك طردت ولا تقل اننا اشترينا منك شيئاً . ما رأيك ؟

ـ لن أبيـع شيئاً ، لن أبيـع شبراً واحداً ، انت لاتعرف قيمة الرزق . سأقضي بقية عمري في أرضي .

ـ لن يعرقل وجودك مشروع الكيبوتز .

ـ أنا لا أعرف ما هذا الكيبوتز الذي تتحدث عنه . لكنني لن أرحـل .

ـ لقد نصحتك .. مع السلامة .

كان وجه الحاكم العسكري قد فقـد كل طيبة وكل قدرة على التفـاهم .

نظر إليـــه العجوز حائراً قلقاً وكأنه أمام باب مغلق . تردد قليلا ، لم يدر ان كان خائفاً أم إنه يريد ان يقول شيئاً آخر . حرك يديه حركات بلا معنى ، ولما لم يجد مايقوله ولم يجد استعداداً من الحاكم هرب بحرجه إلى الخارج .

★

الفصل الخامس

القنيطرة لم تزل كما هي . بعض بيوتها مهدمة . وآثار الحرائق على بيوت أخرى . لكنها كما كانت منذ رأها آخر مرة .

لم يزرها منذ الحرب . كان يخافها . منذ نزل إليها أول مرة . وهو يخاف شيئاً مجهولاً فيها . هذا المجهول الذي يسلبه قيمته بغته . ربما كان اتساعها أو كثرة سكانها أو كونـــه مجهولاً . لا . ليس هذا هو السبب . زار قرى لم يكن يعرف فيها انساناً . كان يحس بالغربة وبانتقاص القيمة ولكن ليس إلى الحد الذي تشعره به المدينة .

جاءها مرة سيراً على الأقدام مع زوجته . طوال الطريق كان كما عهد نفسه .. الرجل القوي الذي تتبعه زوجته على بعـــد خطوات لا هثة لتلحق بجبروته . مركز الثقل وملجأ الزوجة ، ادريس .

ظل يسير بزهوه وهو ينظر إلى زوجته بطرف عينه حتى دخل المدينة ، تنقل فيها قليلاً فرأى فلاحين مثله نكرات مهملة وعرف أنه

اصبح هكذا ، وزوجته ازدادت تضاؤلاً وصغراً . لقد اضمحلا أمام المدينة . كان يعرف ان هناك مدناً أكبر وقد سبق له أن زار دمشق وقيل له ان دمشق لا تبدو أمام مدن أخرى إلا كما تبدو المنصورة أمام دمشق . ورغم انه لم يستطع تصور امتداد تلك المدن إلا انـــه أحس بالكره نحوها وبالرثاء لسكانها .

وهكذا قضى حياته في القرية . وإذا ما اضطرته حاجة للنزول إلى القنيطرة أو دمشق قضى حاجته فيها بأسرع مايستطيع ثم خرج منها دون توقف . حتى التفرج على المدينة لم يكن يستهويه . زينتها وألوانها وكتاباتها كانت ، كلها ، تجعله يحس انه صغير وأمي ومهمل وضعيف ، ولا يملك شيئاً فيها .

هذه المرة رأى القنيطرة مختلفة . رآها عصفوراً كسير الجناح تماماً كما كانت تبدو زوجته وهي تسعى للحاق به في شوارعها ، كانت القنيطرة صامتة رغم جلبة الجنود . ان للسكان الأصليين ضجة ذات طعم خاص ، هذه اللحظة ، فقط ، عرف كم كان يحبه .

ما ان ابتعدعن مكتب الحاكم العسكري حتى دار في أحدالشوارع ليرى جماعة من سكان القنيطرة الذين بدا عليهم وكأنهم كانوا ينتظرونه. لم يكن يعرف أحداً بينهم . لكنهم توجهوا إليه بالكلام وكأنه عاش معهم كل سني عمره .

ـ مرحباً ياعم

ـ يا هلا ومرحباً

ـ أنت الذي طلبك الحاكم العسكري ؟

ـ نعم

وتتالت الأسئلة :

ـ هيه !

ـ ما الأمر ؟

ـ احك لنا

ـ لماذا طلبك

ـ ماذا يريدون منك

ـ احك يارجل . لم أنت صامت ؟

ـ وماذا أحكي ؟

ـ لماذا استدعاك ؟

ـ ابن الكلب يريد شراء البقرة .

ـ تبادلوا النظر غير مصدقين ، وكادوا يضحكون :

ـ يشتري البقرة ؟ هل قلت يشتري ؟

ـ تصوروا . ويريد ان يشتري الأرض أيضاً .

— لماذا ؟

— لكي أرحل إلى دمشق .

— نسألك لماذا يشتري . هل تمزح ؟

— هل يبدو علي انني أمزح

— طبعاً . قلت انهم يريدون شراء الأرض والبقرة .

— نعم

— وهل بعت ؟

— معاذ الله ، أبيع ؟ ابن الحرام يظن انني حصلت على البقرة والأرض صدقة ، لايعرف تعبي فيها .

— لم تبعها ؟

— طبعاً لا أبيع ، هل تبيعون لو طلب منكم ذلك ؟

— اسمع ياعم ، لاشك انهم يريدون بك سوءاً

— فليبلطوا البحر ، لماذا يريدون السوء لي ؟

— عملية شراء الأرض والبقرة ليست مريحة .

— وأنا لم أبع .

— ياعم اسمع كلامنا .

— ماذا تريدونني أن أسمع ؟

ـ لقد استولوا على هذه المنطقة بالقوة ولم يشتروها . طردوا السكان وقتلوا وأحرقوا . كيف ترى من المنطقي أن يدفعوا لك ثمن أرضك ؟

ـ لا أدري ، هذا ماحصل .

ـ نحن نصدقك ، ولكن يجب أن تترك المنصورة ، تعال عش معنا .

ـ حلو ، لو كنت أريد ترك المنصورة كنت بعته .

ـ سيأخذون منك مايريدون ساعة يريدون . انهم يستطيعون أخذ كل شيء .

ـ كل شيء ؟ هكذا ؟ ونحن ، أين نذهب ؟

ـ نحن خسرنا الحرب

ـ أنا لم أخسر الحرب ، الجيش خسر الحرب ، أنا صاحب الأرض ، ماعلاقة حربهم بالارض والبقرة .

ـ لقد حاربونا من أجل الأرض

ـ أرضي ؟

ـ كل الأراضي ، وسيأخذون أرضك أيضاً بالقوة

ـ فشروا ، أنا باق أنتظر الأولاد

ـ لن يسمحوا برجوع احد ، أمس قتل رجل من قريتنا وهو

يحاول التسلل لأخذ بعض أمتعته .

لم يستطع إكمال هذا الجدال ، قال :

ـ أنا لا أعترف على قوتهم ولا حربهم ، أنا ذاهب إلى المنصورة ثم تركهم في ذهولهم ومضى دون أن يلتفت .

تجول في شوارع القنيطرة ، تفرج على كل شيء ، دون ان يهتم لأحد ، عرف أنه أكبر من المدينة والجنود والضجيج ، ولم يعد يلتفت لأحد ، وحتى حين اقترب منه أحـــد السواح ليلتقط له صورة ، لم يلتفت إليه .

الفصل السادس

سار وحيداً عائداً الى المنصورة . ولم يستطع إلا ان يفكر في عرض الحاكم العسكري . لو أنه باعهم الارض والبقرة ماذا سيفعلون بها ؟ لا شك انهم كانوا سيذبحون البقرة دون ان يعرفوا كم هي عاقلة وكم تدر من الحليب وكم لاقت من العناية . والارض . ما الذي يضمن انهم لن يتركوها تبور وتمتلىء بالأشواك ؟ ماهذا الكيبوتز الذي يتحدثون عنه ؟ وحتى لو أرادوا استثمار الأرض كيف سيحتمل رؤيتهم وهم يجنون محاصيلها ، ولماذا يستثمرونها هم وليس هو ؟

لاشك انهم كانوا سيزدمون الساقية ، كم كان سيفتقد الصخرة وشجرة الجوز والدوالي والتراب والسنابل ، إنه يعرف ترابهـــا لوناً ورائحة وطعماً وصلابة ، لقد اشتغل فيها منذ طفولته ، ولم يكن أحد حوله يستطيـع فهم هذا الإلحاح على العمل ، دائماً يعاتبونه :

ـ إلى متى الشغل ؟

ـ العمر يخلص والشغل لايخلص

- يلعن أبو الشغل « اقعد ارتح .

- يلعن أبو العاطلين ، كيف تستطيعون القعود بلا عمل

- ألا تتعب يارجل ؟

- طبعاً أتعب ، وحين أتعب أرتاح ، وبعد الراحة ماذا أفعل ؟ الأرض لا يشبع منها الانسان ، الأرض والطعام والمرأة ، ترتوي من احداها فتظن انك لن ترغب فيها مرة أخرى ، لكن الرغبة تعود اليك بعد قليل و كأنك لم تلمسها عمرك ، فتعود اليها باللهفة ذاتها والرغبة ذاتها .

طوال عمره لم يفهم كيف يستطيع إنسان أن يستيقظ صباحاً ولا يحمل فأسه ويتجه إلى الأرض ، لاشك ان هناك نقصاً ما فيه ، تماماً كرجل يستيقظ فيرى زوجته إلى جانبه وهو لم يلمسها منذ شهر مثلا كيف لايضمها إليه ؟

جيل كسول . يريد أن تأتيه اللقمة الى البيت . هذا هو الجيل الذي خسر الحرب ، يظنون ان الارض قميص يغيره الانسان متى شاء .

كان في حاجة الى من يحادثه ، من يستمع الى رأيه . من يقول له ان كان قد أحسن بعدم بيعه الارض والبقرة لهم فيطيب خاطره بكلمة .

وانتبه إلى نفسه وهو يقف قرب قبر الجندي المجهول . تصور انه وهذا القبر قطعتان صلبتان من الأرض وان السيول قد جرفت كل الأرض الرخوة من حولهما .

وبغتة سمع البوق . سمعه صرخة منبعثة من حيث لايدري . ربما هي صرخة الجندي ذاته .

انت مثلي أيها الجندي . انت أيضاً لم تترك مكانك رغم انسحاب آلاف الجنود . لو عرضوا عليك شراء قبرك هذا هل كنت تبيعهم ؟ أنا أعرف انك لاتفعلها « سنبقى معاً ، وسأزورك دائماً ، فأنا أيضاً ، لم أبع قبري .

وانفجر البكاء الذي يختزنه دفعة واحدة ، وأحس انه يعرف هذا الجندي ، وتصوره شاباً أسمر الوجه بشاربين قويين ورأى عينيه تحدقان إليه .. ورأى فيها نظرة ودودة .

وحين التفت ليسير سمع البوق من جديد، الجندي المجهول يبكي . هذا أيضاً لايجد حوله من يشكو له كان يحس بالوحدة هو الآخر وهاقد وجد أهله ، لم يعد مجهولاً . سأزورك دائماً .

صوت البوق ما يزال في أذني ادريس . كان النداء طويلًا وعميقاً كعويل أو تأوه أو أنين . سمعه كالأذان الذي يصاحب الجنازة ، وسار بهدوء وصمت و كأنه أحد المشيعين .

طوال الطريق كان يفكر ويحلم ، وحين وصل إلى مشارف القرية طالعته الحقول المترعة بالسنابل ، صحيح ان الموسم رديء . ولكن لا بأس سنعوض هذا الأمر .

أحس انه يرى في هذه الاراضي المشمسة وجوهاً أليفة افتقدها طوال عمره . كأنما هو عائد من سفر طويل . وفي كل قطعة أرض كان يرى وجه صاحبها باسماً محيياً مرحباً .

لم تكن الأراضي خالية الآن . كانت مليئة بالفلاحين أنصاف عراة مطأطئين . المناجل في أيديهم وصبايا القرية يجمعن الأغمار والغناء ينبعث مثيراً النخوة للتسابق بين الحاصدين . انهم يجنون مواسمهم أو يزيلون هذا الموسم الرديء من أجل موسم أفضل فيه جهدهم وعرقهم .

ووسط الأراضي رأى أرضه . رآها وحيدة . كانت تلوح إليه بشوق . أحسها تفتح ذراعيها وتهم بالنهوض علاقاته . أحس ذلك من البسمة التي تغطيها . وركض اليها وهو يكاد يقسم ان لاتقوم . هجم يعانقها ويبكي .

وانتبه إلى نفسه يجول في الأرض كطفل . يلعب مع نفسه . تحرك بسرعة في كل اتجاه .. نحو الساقية والصخرة وشجرة الجوز . والدوالي . كل دالية تعرفه ويعرفها يحتضن كلا منها بعينيه ثم يتحول إلى غيرها . كيف يمكن ان تباع هذه الاشياء ؟ البقرة أيضاً ما تزال مكانها . ها هي ذي تلتفت باحثة عنه . لقد اشتاقت إليه هي الأخرى .

وهجم عليها فاحتضن عنقها وقبلها . ظمأى ولا شك . ولم يحب ان يتعبها . ذهب إلى النبع عباً سطلاً من الماء وجلبه إليها . وحينما أخذت تغر الماء أحس عذوبته في حلقها . وبعد ان انتهت من الشرب فك رباطها وقادها بلطف إلى البيت .

كان سعيداً انه ما يزال يسير معها . وكان منشرح الصدر بعد ان اغتسل بالبكاء . وبسعادته العارمة التفت إليها وهو يضحك ضحكة هي مزيج من البكاء والفرح :

« تصوري انهم كانوا يريدون ان يشتروك »

الفصل السابع

بهدوء غابت الشمس هذا المساء . بهدوء انسحب الفيء أمامه على وجه الأرض كالملاءه . وبهدوء هبت النسمات العذبة وهو متكيء أمام البيت .

وحين خيم الظلام والتمعت النجوم في السماء أحس برغبة في أن يدخن لفافة . وتذكر أن تبغه قد انتهى . ندم لانه لم يأخذ معه دراهم إلى القنيطرة ليشتري .

وتذكر حانوت أبي هاني لديه « حموي فلت » . سأذهب وأجلب كل ما في الحانوت . وسأعدها . وحين يعود أدفع له ثمنها .

ونهض يجوس القرية الموحشة حتى وصل الحانوت . وحين وجد الباب مغلقاً دار ليدخل من النافذة المطلة إلى أرض الدار فداخله إحساس بأنه يسرق . التفت بغتة حوله ثم دفع النافذة ودخل .

الحانوت رطب وقاتم . أشعل عود ثقاب فوجد أن الفانوس ما

يزال مكانه فأشعله . نقل نظره على المحتويات ثم على المصطبة الصغيرة والكراسي الصغيرة الموزعة . من هنا تفوح الالفة . هنا كانت الجلسات والمسامرات والتحدث إلى الجنود والمشاجرة معهم والشباب يسرقون أنفسهم ليلعبوا الورق أو يشربوا الخمرة التي يجلبها أبو هاني سراً ..

كان الصمت ثقيلاً . وبدأ يحس ما يشبه صوت الأنفاس . والظلال بدأت تخيفه . ودون ان ينفض الغبار عن الباكيتات تناول مجموعة منها وقفل راجعاً بعد أن أطفأ الفانوس بنفخة .

حين ابتدأ يسير نحو البيت عاد الى نفسه الهدوء . غضب لانه خاف .. فاسرع الى البيت .

دخل فأودع حمولته تحت وسادته ثم حمل واحدة منها فتحها ، لف لنفسه لفافة أشعلها ثم رش على الباكيت قطرات من الماء وخرج فلفها بخرقة رطبة ثم وضعها قرب الباب . وعاد فاتكأ يستمتع باللفافة .

وفي الصمت سمع وقع أقدام . ظن لاول وهلة انها البقرة .

لكنها نائمة قربه . وهذا الدوس دوس ابن آدم . وقبل ان يقف ليرى من القادم فتح الباب ودخل .

كان شاباً فد لف حول رأسه حطة مبرقعة وكان في يده سلاح . توجس لاول وهلة : لص ام يهودي ؟ هم بالسؤال وبالاستعداد للمقاومة ولكن النظرة الوادعة في عيني الشاب جعلته يسترخي قليلاً.

ـ السلام عليكم . أنا عربي . لا تخش شيئاً .

وفك الحطة عن رأسه ، كان شاباً في مقتبل العمر . انه عربي .

ـ وعليكم السلام . أهلاً وسهلاً . تفضل .

وهم بالنهوض .

ـ حلفت عليك ان لا تقوم . اقعد مرتاحاً . سأجلس هنا .

وجلس على البساط .

هل هو من الجنود الذين ضلوا طريق العودة ؟ مستحيل . كان ذلك منذ عشرة شهور . من هو إذن ؟

ـ هل أنت وحدك ياعم ؟

نعم . خذ راحتك . وأنت ؟ هل أنت وحدك ؟

ـ نعم .

مئة أهلاً وسهلاً بك . اخلع ملابسك . الحر شديد .

ـ لا حاجة لذلك . شكراً . ارجو ان لا اكون قد ازعجتك . لقد وصلت الآن وأنا جائع . فقصدت أول بيت فيه ضوء .

ـ أهلا وسهلا . خسيء الجوع .

وقام بهمة . جلب بعض الكسرات اليابسة من الخبز كان يحتفظ بها في تنكة فبلها .

ـ أرجو ان لاتؤاخذني . ليس لدي إلا هـذا الخبز . سأطبخ لك بعض البرغل . ما رأيك ؟

ـ كما ترى . الموجود .

أشعل النار ووضع الوعاء عليها .

قال الشاب : انا في المنصورة . أليس كذلك ؟

ـ نعم .

اذن لم اعد بعيداً عن القنيطرة ؟

ـ ساعة مشي .

وعاد الصمت من جديد . كان العجوز يضع الحطب تحت الطبخة وهو ما زال حائراً في من يكون هذا الشاب . ولكي يبدد الصمت سأله :

ـ هل تعرف المنطقة جيداً ؟

كما أعرف كفي .

ـ من أين انت قادم .

من الارض المحتلة .

ـ كل الارض محتلة .

من القدس .

ـ وكيف جئت الى هنا ؟

ضللت الطريق ليلة أمس ولم اعد استطيع اللحاق باصدقائي ثم اكتشفت نفسي في المرتفعات السورية .

ـ وماذا كنتم تفعلون هناك ؟

ابتسم الشاب بهدوء : كنا نقاتل

ـ ماذا ؟

ـ نقاتل

ـ من تقاتلون ؟

ـ العدو ، هل هناك غيره ، الصهاينة .

ـ لكن الحرب انتهت منذ زمن .

ـ لا . نحن مازلنا نقاتل .

ـ عجيب . كنت أظن ان كل شيء قـــد انتهى . هل أنت عسكري ؟

ـ لا . كنت طالباً في الجامعة

ـ وتركت دراستك لتقاتل ؟

ـ نعم .

كان العجوز عاجزاً في هذه اللحظة عن إدراك ما يرمي إليه الشاب. أنزل الطبخة عن النار . صب البرغل في صحن كبير وقرب منه الشاب .

ـ هل تأكل بصلاً .

ـ نعم .

قدم العجوز البصل .

ـ تفضل . ابدأ الطعام .

ـ شكراً . ألا تأكل معي ؟

ـ أسايرك . أنني في الحقيقة لست جائعاً . لاتؤاخذني .

ـ هذا هو الموجود .

ـ هذا كاف . خيركم واجد . بسم الله .

وبدأ الطعام . قال العجوز :

ـ لاتؤاخذني اذا أكثرت من الاسئلة . لكنني لم أفهم ما قلتـــه قبل قليل .

ـ ما الذي لم تفهمه ؟

ـ قلت لي أنك لست عسكرياً .

ـ نعم .

ـ ومع ذلك فأنت تقاتل ؟

ـ ياعم . لقد حدث ماحدث في حزيران . وهزمت الجيوش . لم تنته . ليس من الضروري ان تنتهي الحرب اذا انهزم الجيش الحرب لم تنته . ويجب ان لانترك العدو يستقر .

ـ وهل هناك فائدة ؟

ـ طبعاً . لولا ان هناك فائدة ، لو اننا يئسنا نهائياً لما قاتلنا ولما بقيتم في أراضيكم .

باللفرحة . هذا رجل آخر لم يهزم . رجل آخر يفهم .

- كنت أقول دائماً اننا لم نهزم .

- كان علينا ان نقاتل منذ زمن طويل . لقد تأخرنا كثيراً . ولكن لم يفت الأوان بعد .

- هل أنتم كثيرون ؟

- لا بأس .

- مئة ؟

- بالآلاف .

- عظيم .

- لا . يجب ان يقاتل الآخرون كلهم .

- والآخرون ماذا يفعلون ؟

- لا شيء ، يكرهون أنفسهم ويحبوننا لأننا نموت .

اللعنة ، هذا رجل آخر خذله الآخرون ، وقف يتملى الشاب الذي كان يأكل بشهية . ولام نفسه لانه لم يقدم له طعاماً كافياً . وخطر له أن يذبح البقرة . نعم . هذا يستحق .

- لاتكثر من البرغل . انتظر قليلا . سأصنع لك عشاء جيداً .

- لا . شكراً . هذا كاف .

- لا والله .

ـ لاتحلف . لقد شبعت . ولن أطيل الجلوس هنا . اجلس ودعنا نتحدث قليلا . الحمد لله .

دفع الطبق من أمامه ثم عاد إلى الحديث :

ـ أريد أن أوصيك بان لاتخبر أحداً بمجيئي إليك لئلا يضايقوك .

ـ وهل أنا طفل ؟ هل من المعقول أن أقول لهم .

ـ لا أعني العدو فقط ، لاتخبر حتى اخوانك في القرية . قد تفلت كلمة تكلفهم الكثير .

تنهد العجوز بحرقة : لاتخش شيئاً .

ـ خير ؟ فيم تنهدك ؟ هل هناك مايزعجك ؟

ـ لا . لكنني لن أستطيع إخبار أحد . فأنا هنا وحيد .

ـ وحيد ؟

ـ نعم . وغص بالبكاء .

ـ لم أفهم .

ـ أعني أنني الوحيد الذي بقي في هذه القرية .

وليس هناك أحد غيرك ؟

ـ أبداً .

ولماذا بقيت ؟

ـ والى اين اذهب ؟ هنا أرضي . وانا انتظر عودة من رحل .

كانت المفاجأة اكبر مما توقع الشاب . اخذ يتملى العجوز من جديد فاكتشف في ملامحه وشعره الابيض وعينيه المغرورقتين بالدمع ملامح قديس .

الا يضايقونك ؟

ـ قليلا . اليوم اخذوني الى القنيطرة . خفت . ظننت انهم يريدون بي شراً . وإذابهم احذر ماذا يريدون ؟ ان يشتروا البقرة .

— يريدو ان يشتروها ؟

ـ نعم . ولم ابعهم طبعاً . لم يستطيعوا فهم أهمية البقرة بالنسبة لي وحاجتي اليها من اجل الارض . فغضبوا . وقال لي الحاكم العسكري انهم يريدون بناء شيء هنا . نسيت ماذا كان اسمه . فقلت له لن ابيع بلط البحر .

ضحك الشاب وضحك معه العجوز . كانت ضحكة الشاب عذبة ولم يدر العجوز كيف قفزت الى ذهنه معركة تل الفخار . لقد سمع انها كانت معركة عظيمة . وقال في نفسه وهو يتأمل الشاب لو أن هذا الشاب كان في الجيش لعمل معركة مثل تل الفخار . ونبهه الشاب :

معذرة . هل لديك سجائر ؟

ـ نعم . نعم . انتظر . سأجلب لك سجائر رطبة . وخرج الى حيث اودع الباكيت جلبها بسرعة والشاب يرقبه .

أألف لك سيجارة ؟

لا . شكراً . انا اتقن اللف .

وضحكا .

أشعل الشاب لفافته ونهض .

ـ إلى أين ؟

ـ آن الاوان . يجب أن أجتاز الحدود قبل الفجر .

ـ خذ هذا الباكيت .

وأمام الأيمان والرغبة الملحة لم يستطع الشاب ان يقاوم . فأخذها ومد يده إلى إحدى جيوبه وأخرج بعض المال .

ـ خذ ياعم . قد تحتاج إلى ....

وقاطعه العجوز بحدة : أرجع دراهمك إلى جيبك . عيب يارجل .

ـ أعني . من أجل مرات قادمة .

ـ ولا كلمة ، أعدها الى جيبك . (أطاع الشاب) هذه المرة مثل المرات القادمة ، كلما مررت هنا تستطيع أن تمر بي . أنت مثل ولدي وهذا البيت بيتك .

ـ ممنون .

ـ العفو .

وخرجا معاً . وبعد ان ابتعدا قليلا ، وقف الشاب .

ـ الآن يجب ان أسير وحدي .

ـ مع السلامة .

وفي الظلام شد كل منهما الآخر إلى صدره ، كان كل منهما يؤكد بحرارة انه قد وجد ما أحس انه يفتقده منذ زمن . وكان العجوز يبكي .

خلص الشاب نفسه ومضى .

راقبه العجوز قليلا فأحس انه يودع ابناً قد لا يراه .

ـ يا ابني

ـ يا عم

وعاد الشاب

ـ لم تقل لي اسمك .

ـ هل هو ضروري ؟ نحن نبقي أسماءنا سراً ، ونحمل اسماء مستعاره .

ـ كما تشاء .

ـ ما اسم ابنك الكبير ؟

ـ حامد

ـ اعتبرني حامد

ـ أنا خائف عليك يا حامد

ـ بارك الله فيك ، لاتخف .

واحتضنه العجوز من جديد .

ـ ما رأيك لو تظل هنا ؟ سنعيش معاً ونعمر هذه القرية .

ـ لا يجوز ، القتال أفضل .

ـ أنا أدري ، لو لم أكن عجوزاً ....

ـ بقاؤك هنا مثل القتال . سأحتاج اليك كثيراً في المستقبل .

لقد سبقه العجوز إلى التعبير عن مخاوفه . ولم يجرؤ على توجيه أية نصيحة .

أحس بالحرج كولد يحاول نصح أبيه .

ـ لماذا تبكي ؟

ـ عليك ؟

ـ لاتخش شيئاً

ـ أخاف أن تموت

الموت في كل مكان . لكنه يبتعد عنا كلما اقتربنا منه .

ـ وهل هناك فائدة ؟

طبعاً هناك فائدة .

ـ أما من وسيلة أخرى .

لا لم يبق الا السير مع الموت .

ـ الموت مخيف .

لا تيأس من رحمة الله .

خجل العجوز .

ـ ولكنني رأيتهم يهربون بالآلاف .

انهم يعودون الآن واحداً فواحـــداً . وسيصبحون آلافاً ممن لا يهربون .

ـ ومتى يقاتل الجميـع ؟

ـ عندما نموت نحن

ـ تموت ؟

ـ نعم ، وإلا ظلوا في بيوتهم

ـ لا ياحامد لا تمت أرجوك

أدرك بغتة أنه يتحدث كطفل لكنه لم يستطع تمالك نفسه ، هجم عليه يحتضنه من جديد ، ان مات لم يبق لي شيء .

ـ ان مت هناك غيري .

ـ مثلك ؟

ـ افضل مني

ـ قل لهم ان يعودوا بي اذا استطاعوا

ـ سأدلهم عليك

- وفقك الله . لقد أخرتك . خذ هذا الطريق وتجنب هذه القمة ففيها جنود .

شكراً .

- الله معك .

وأدار ظهره . خشي أن يلتفت الى الوراء . كأنما كان يتوقع أن يموت الشاب بين لحظة وأخرى . ولم يحب أن يراه يهوي .

وحده وقف يرقب القرية التي تسبح في الظلام والصمت وخطوات الشاب تبتعد حتى تلاشت . والتفت فلم يره . كان الظلام قد ابتلعه . وأطلق بصره الى أضواء دمشق . لم تكن الاضواء مرتجفة . كانت تتحرك كشجرة مزهرة تتمايل مع النسيم .

وانحدر الى القرية .

لو لم أكن وحدي . لو كان هناك آخرون . كنا فعلنا الكثير لهذا الشاب المهموم . لماذا لم يبق أحد ؟ للمرة الاولى يتساءل بهذه الحدة اللعنة عليهم . اين العصي في مشاجرات العشيرتين ؟ اين شجاعة الشباب واين كلماتهم الكبيرة التي لم نكن نفهمها ؟ اين الدرك واحذيتهم الثقيلة التي كانت ترفس الوجوه ؟ اين بنادقهم المعلقة وهم يأكلون الذبائح ؟ هل كانت مخازنها ، كما يقول الاطفال ، محشوة خرقاً ؟ اين العناد على شبر أرض ؟ والقتل والثأر ثم الثأر ثم الثأر .

كان وحيداً كشجرة دون حماية وجذعها لم يعد يقوى على الحمل ساعة وداع الشاب كانت ساعة عري .

وداهمه الشعور الحاد بالوحدة . أحس بالحاجة الى الآخرين . أنه يحبهم : يحب ابناءه وابناء اخصامه من العشيرة الاخرى . والدرك يحب الجميع . كما الشجار معهم نوعاً من حبهم . لا معنى للحياة بلا أناس نشاجرهم لكي نحس الحياة معهم . وجنود يفسدون الموسم بحفر خنادقهم ، كل هذا اصبح الآن جميلا . وتمنى لو يعود كل شيء . كنت اغير معاملتي للجنود . احبهم اكثر . واساعدهم . ولا اتقاضى منهم ثمن شيء .

وانتبه الى نفسه عندما اصطدمت قدمه بحجر تدحرج ودحرج عدداً من الحجارة أصدرت صوتاً مفاجئاً .

ندم لانه احس بالحاجة الى ابنه حامد . هذا ليس نفعاً لاي شيء . يجب ان اعمل وحدي . حامد ذو البندقية هو الشاب النافع . آه لو كنت شاباً . وتذكر الصخرة . لو كنت شاباً لرفعت الصخرة ! لكنني سأرفعها . هذه الصخرة ضربت شروشها في الارض لانها تركت هناك منذ زمن طويل جاءت من مكان ما . سقطت ، ربما ، من الجبل ثم ساعدها اهمالنا لها على ان تصبح قسماً من الاروض وعلى ان تعذبني نهاراً كاملا .

كان يحس بالحاجة المحرقة لاي إنسان يحدثه عن اي شيء، ويحدثه عما رأى في الليلة .

وقد ران بينه وبين هذا الفتى شيءٌ مشترك . كلاهما مستمر في اعماله و كأن الحرب لم تقع . أو كأنها لم تنته . كأن العدو لم يحتل شيئاً جديداً .

حين يراهم سيحدثهم بكل شيء . وسيشعرهم بالخجل لانهم تركوه وحيداً طوال هذه المدة . وسيحسدونه لانه الوحيد الذي قدم مساعدة لهذا الفتى .

لم يسأل نفسه لماذا جاء الى المقبرة . لقد قادته قدماه دون ارادة . وداهمه شعور بالرهبة . لم يعد في القرية الا انا والبقرة وهؤلاء . ولم يكن في حاجة الى البحث كي يهتدي الى قبر زوجته .

حين اقترب من القبر استيقظت اتعابه . ورغب في البكاء . فجلس على الارض ومد يده بهدوء ليمسح ترابه . احس انه يمسح جبينها او جسدها . كانت خشونه الارض وتعرجاتها شبيهة بجسد زوجته العجوز قبل موتها . سمعها تقول له : « انطفأنا ياأبا حامد . لم أعد صبية » . كانت تقولها بذاك الدلال الذي لازمها طوال عمرها والذي لم يصل بها أي يوم الى العناد .

لو رأيت هذا الفتى الذي زارني اليوم . ذكرني بكل شبابي . كان في حاجة إلى يديك تطبخان له شيئاً يتزود به في سفره . لو كنت شاباً .

« عيب . لم تعد شاباً » وهي ترتعش تحت يده التي تتحسس جسدها ثم تلتصق به وينامان حتى الصباح . كانا ملتصقين طوال الحياة المشتركة التي قضياها معاً منذ الليلة الاولى .

امتلأت ذاكرته بضوضاء العرس . بدبكات الشباب . بزغردات النساء وكان جسدها صلباً وقوياً . وكانت الضوضاء تتسرب الى المخدع الذي ضمهما في الليلة الاولى . حيث قاومت قليلا . لكن صلابة جسدها لانت له بعد قهر وعورته . كان الجميع يصخبون فرحاً . وكان الجميع ينتظرون منه اثبات مقدرته . والا سخروا منه في الصباح . وبعدها تسلمه الزوجة نفسها وهي اقوى منه . لكنه كان شاباً مثل الجسر فاغتصبها . تلك الليلة وبعدها التصقت به إلى الابد . ولم تحقد عليه . بل أحبته . وأحبها كما أحب أرضاً قد وعورتها وتمنع بخصبها .

تزوجتك مرغمة . لم تكوني تجينني . لكن الحياة المشتركة القاسية وانتظار المواسم والوليد وغبطة الانتهاء من المنازعات الصغيرة

والاعمال القاسية . والزوادات التي كنت تجلبينها الى الحقل والى المخبأ الذي سترني عن أعين الدرك أشهراً طويلة . واللمسات اللذيذة التي تتسلل من الخوف في تلك المخابي . هذه الامور كلها ، وغيرها جعلتنا نتحابب . ويتعود كل منا على الآخر .

وأحس بأن عليه أن يفضي بما منعته كبرياؤه من الافضاء به من قبل . كانت ايامي قاسية بعدك ومجدبة الاولاد ليسوا عزاءً كافياً . حين فقدتك احسست انني فقدت شيئاً مني . شيئاً كذراعي او عيني . كنت أفتقدك دائماً . حين مت قال ابناؤك انك ارتحت . اصحيح هذا وهل سيقولون عني مثل هذا الكلام عندما أموت ؟ ربما فعلوا . ربما قالوا ذلك وهم يحملون جنازتي . لماذا يقولون كلمات كهذه ؟ يبدو لي ان ارتباطهم بنا ضعيف . كنا نحب آباءنا اكثر . وهم يحبون أبناءهم اكثر منا ولهذا تركونا وهربوا بهم . لماذا يتخلون عنا بهذه السهولة تخلوا عني وعنك وعن البقرة وعن الارض . ماذا يحبون اذاً ؟ حين يعودون لن اعيش معهم تحت سقف واحد . يظنون انني محتاج اليهم . انا لست عاجزاً . سأقسم الرزق بينهم وسأترك لنفسي ما يكفي . انا لست في حاجة اليهم . انا في حاجة اليك وحدك ان البقرة ترفع رأسها كلما نزلت الى الحقل وتلتفت في كل اتجاه

أنا أعرف انها تبحث عنك . منذ سنتين وهي تنتظرك . هي الاخرى في حاجة اليك .

كان يبكي . وكانت الدموع تتسرب عبر لحيتـــه التي لم تعرف الحلاقة منذ شهور . واحس بالراحة . خلصته دموعه مما كان يحبسه في صدره . وهبت نسمات عذبة على وجهه فاسترخى على القبر . وراح في سبات عميق .

الفصل الثامن

فتح عينيه بصعوبة ، شمس الضحى مسلطة فوقه . والعرق يتصبب من كل مكان في جسده. لم يعهد في نفسه هذا النوم العميق . وتذكر ان البقرة ما تزال دون طعام . فنهض متثاقلا وسار الى البيت .

سرقني النوم ولم أستيقظ لصلاة الفجر . لكنه لم ير هذا أمراً مهماً ، كان رأسه متعباً ولا شيء يخطر في ذهنه الا ومضات حول ذلك الفتى الذي كان يحمل المطرة والجعبة والبندقية . هل سيعود الي مرة أخرى ؟ وحين اضطر الى الاتكاء وهو يفكر في الشاب تأكد له عجزه . لست مثله .هذا الشاب لا ينام في مقبرة وهو يبكي ويناجي قبراً . هذا إنسان يعمل . كيف نمت في المقبرة . ودفع الباب بقوة تحمل نقمته على نفسه .. وأخرج البقرة دون أن ينظر اليها .

وما ان وقف بباب البيت والبقرة وراءه حتى صعق . كانت النار تلتهم الحقول غير البعيدة عن القرية . لم يصدق عينيه لأول وهلة حقول القمح !! وركض بكل مالديه من قوة .

بدأ الاطفاء منذ وصوله . النار في الحقول كلها . بدأ يغرف التراب بكفيه ويدوس النار بقدميه . خلع قميصه وبدأ يضرب به السنابل المشتعلة .

كان واضحاً ان النار لن تنطفىء بجهوده وحدها . فالحقول الاخرى تتكسر تحت ألسنة اللهب . والعرق يتصبب من جسده . يبدأ الاطفاء هنا فيرى ان النار يركض في تلك الحقل بسرعة مخيفة . ويركض الى كل مكان فيه نار . يضرب قميصة دون جدوى . أي ابن كلب رمى عقب لفافة او اشعل عود ثقاب !

وقف وسط النار وبدأ يصيح: «حريق . حريق» وحدك ياادريس .
يا ادريس ! من تنادي ؟ اين أهل القرية ليروا مواسمهم وأراضيهم « حريق » وهو مدرك انه وحيد . لكن كيف يبقى صامتاً . يجب ان يسمعه انسان . ليس من المعقول ان تلتهم النار هذه المواسم بهذه البساطة « حريق » وعيناه تدمعان من الدخان والسعال والحرج .

« حريق » . « حريق » . الشمس محرقة والارض أتون والنارفي كل الحقول وفي قلبه . « حريق » والتفت من جديد الى الرزق الذي

تلتهمه النيران . والى الارض التي دللها ودللها أهل القرية وهي الآن تتلوى . حريق ! مستحيل . مستحيل . وعاد يضرب بقميصة . نصف عار بين ألسنة اللهب يضرب يميناً ويساراً . حريق ! . . ويركض ادريس ياصاحب النخوة . ماذا أفعل ؟ أنا وحدي . أنا وحدي . والنار كبيرة . أنا وحدي والارض المحترقة واسعة . وحدي . وحدي .

وارتمى على الارض يبكي بيأس وحرقة .

وحين سمع وقع اقدام قربه رفع رأسه وقلبه يقفز فرحاً . وثب من مكانه وإذا به وجهاً لوجه أمام عدد من الجنود الاسرائيليين .

تمنى لو يعانقهم . أحبهم من كل قلبه . المهم انهم بشر يسمعون الاستغاثة، ويستطيعون مساعدته . ودون ان يتكلم حمل قميصه وعاد يضرب به اللهيب بنشاط متجدد . ضرب عدة ضربات فلم يحس انهم يفعلون شيئاً . ومضت في ذهنه وقفتهم . كانوا جامدين . ولم يبد عليهم انهم سيساعدونه . والتفت اليهم مندهشاً . وكاد يصرخ بهم ان يعجلوا فاصطدم بوجه قاس يقترب منه بعصبية ويشده من كتفه بعيداً .

استسلم ليد الجندي وقد لجمته المفاجأة . لكنه كان مستمراً في الكلام : « النار . النار . انظر . انني أطفئها » والتفت الى الآخرين مستعيناً لكن لم يحرك أحد منهم ساكنا . ولم ينفرج أي وجه .

ربما كانوا هم الذين احرقوها . وانتزع نفسه بقوة مفاجئة من

يد الجندي واقترب من الآخرين « النار تأكل المواسم كلها . الا ترون؟ حرام عليكم . احصدوه . خذوه . لكن لا تحرقوه . صحيح أنه ليس موسماً جيداً . لكنه رزق . استفيدوا من التبن . »

ظلت وجوههم مغلقة بقسوة . للمرة الاولى في حياته أحس أنه يكره مخلوقاً بهذا المقدار . ولم يعد قادراً على تمالك نفسه . فأغار بغته عليهم . وضرب أول من صادفه بقبضته ضربة حاقدة وأغار يضرب الثاني قبل ان يستيقظ الجميع من المفاجأة . وحين توجه ليضرب الثالث فاجأته ضربة من كعب بندقية على مؤخرة رأسه فخر بلا وعي .

الفصل التاسع

حين استرد وعيه كان العرق يبلله ، وداهمه الالم من جرح في رأسه تحسسه واستعاد في ذاكرته كل شيء . قلب نظره في الارض حوله كانت الحقول تحولت الى رماد وكانت النيران تلتهم حقولاً أخرى بعيدة .

لماذا ؟

لم يستطع ان يجد جواباً معقولاً ، لماذا يحرقون الحقول ؟ قام متجهاً الى القرية ، وحين وصل التل المجاور لها التفت ليلقي نظرة أخيرة كان الدخان يتصاعد من كل مكان ووشاح أسود يغطي كل مكان واحس ان الارض المدللة مقهورة ، وانها تلبس الحداد التراب باق . لن يستطيعوا احراق التراب ، هذا الموسم المحروق سيصبح سماداً وستصبح الارض اكثر خصباً ، اياك ان تعطيهم موسماً . احفظي كل شيء لابنائك الذين سيعودون .

والتفت عائداً الى القرية .

في القرية سمع اصواتاً وجلبة، تساءل: عادوا اخيراً؟ واسرع خطاه .

وحين دار حول جدار البيت المجاور رأى جنوداً اسرائيليين يكسرون احد الابواب وآخرين يخرجون امتعة بيت آخر وحين اقترب اكثر رأى شاحنة عسكرية قد امتلأت حتى منتصفها بأمتعة بيوت اخرى .

داهمه غضب حاد، الكلاب، يتصرفون و كأنهم في بيوتهم . اسرع نحوهم صائحاً : « هيه . اتظن هذه البيوت بلا صاحب ؟ » .

التفتو اليه بدهشة ، قال احدهم مخاطباً زميله : « انظر » .

وتوقف عدد منهم يراقب العجوز وهو يتقدم منهم بجسده المليء نصف العاري وشعره المشعث الأبيض ، وحين أصبح بينهم اتجه دون كلام إلى شاب يحمل فراشاً على ظهره وسحبه بقوة مفاجئة أوقعت الفراش على الأرض وجعلت الجندي يترنح مكانه .

وغرق الجنود الواقفون في الضحك ساخرين من زميلهم . والتفت الجندي حانقاً وقد أذهلته المفاجأة وحين رأى العجوز ابتسم قليلًا ، ثم نقل ناظريه في وجوه زملائه وغرق في ضحك أخذ يرتفع قليلا قليلا حتى أصبح قهقهة صاخبة .

زاد ضحكهم من غضبه فأخذ يجر الفراش عائداً في الى البيت ، دفعه الى الداخل ثم التفت ليعود إلى السيارة، إلا انهم كانوا قد أحاطوا

به وقد قرروا ان يتمتعوا بلحظات من الضحك .

هل ظننتم انها بيوت بلا أصحاب ؟

ودفع أحدهم في صدره ليزيحه من طريقه ، إلا انه لم يتمكن من زحزحته ، وتظاهر الجندي بالخوف والخجل : « معذره ، هل هـــذا بيتك ؟ » قال العجوز لا ، لكن له صاحباً .

قال جندي آخر ساخراً : وأين صاحبه ؟

فالتفت العجوز إليه بحماس : لقد ذهب أيام الحرب وسوف يعود.

وبدأ يلتفت اليهم جميعاً وهو يتكلم بما يشبه الصراخ «سيعودون جميعاً ، ولا يجوز ان يجدوا بيوتهم خاوية . ماذا سأقول لهم ؟ ثم من اين لكم الحق في أخذ هذه الأمتعة ». وانتبه إلى أنهم لايسمعونه . رأى ذلك في عيونهم ، فتوقف عن الحديث ولم يدر ماذا يفعل .

وانقذه من حيرته سؤال من أحد الجنود : « هل أنت وحدك هنا؟» فأجاب بسرعة : « نعم » .

قال الجندي بعربية ركيكة : « حسناً . سنعطيك ايصالا . وحين يعود جارك أرسله الينا ليستلم أمانته وتستطيع إذا شئت ان تأخذ ايصالات للجميع ، سنعود غداً ونجلب لك الايصالات ».

كان بقية الجنود يشاركون في الضحك دون ان يفهموا ما يقال ، والتفت الجندي الذي كان يكلم العجوز فترجم لهم مايقترحه وفرقعت

الضحكات ، أجال العجوز عينيه في وجوههم فأحس بالعرق يتصبب من كتفيه . وأحس بالإعياء ، وتمنى لو يجلس .

ظل يجول بعينيه المتعبتين في وجوههم ، وتذكر الفدائي ، لو كان هذا الشاب هنا لتغير الموقف . وتصور ان خير مكان يستحق هذا الجندي ان يصاب به هو فمه .

وداهمته الرغبة في البكاء ، لكن كبرياءه منعته ، كان الجندي قد عاد إلى الحديث الساخر : لاتصدق ؟ تستطيع ان تدلنا على بيتك كي لانقترب منه .

أحس انه كالسجين ، كان محاصراً بأجساد الجنود المتضاحكين بينما جنود آخرون مازالوا منهمكين في نقل الامتعة ، وكان أحدهم يحمل من أحد البيوت مذياعاً وهو يتراقص بخلاعة على انغامه .

وانتبه الجندي إلى البقرة التي كانت على التل . قال مخاطباً العجوز .

ـ هل هذه البقرة لك ؟

وأومأ العجوز برأسه مستسلماً . وعاد الجندي إلى الحديث بلهجته الساخرة ذاتها «لاأراك حريصاً على أملاك جيرانك كما تدعي ، فبقرتك حرة ترعى في أي مكان ، وربما اعتدت على أرزاق الجيران » .

اراد العجوز ان يقول له ان الارزاق كلها قد احترقت لكنه لم ير ضرورة لذلك ولم يشعر بالرغبة في فتح فمه .

والتقت عيناه عبر اجسادهم بعيني الملازم الذي كان يقترب من جنوده غاضباً .

تفرقوا مستجيبين لاوامر الملازم، وانتشروا حول السيارة وفي البيوت.

الفت اليه الملازم ونهره بلهجة صارمة مشيراً بيده ان يبتعد . ثم عاد الملازم ينادي الجندي الذي كان يتكلم العربية وتحدث اليه ، فقال الجندي للعجوز .

«سيدي الملازم يقول: لاتدعنا نرى وجهك بعد الآن ،هيامن هنا».

أطرق العجوز برأسه وسارمستسلماً صوب بقرته مكدود الذهن عاجزاً عن التفكير في أي شيء كان مليئاً بالغضب . وكان غضبه صلباً كالحجارة فلم يستطع البكاء .

امسك بالحبل المربوط الى البقرة وجرها وراءه وهو صامت ولم يجد في نفسه القدرة على النظر حوله . الى يمينه القرية المنهوبة . الى يساره الارض المحروقة . وهو وحيد مع بقرته فجلس .

كان الجنود قد انتهوا من املاء الشاحنة .وتحركت للمسير .بقي عدد من الجنود في القرية وقد تلقوا امراً من الملازم قبل ان يركب .

سمع العجوز صوت السيارة وهي تبتعد فلم يرفع رأسه ، كان يبدو كالنائم ، وحين مرت طلقة قربه ارتجف قليلا والتفت إلى الجنود باعياء.

قال الجندي الاول : لقد أخطأته . الرماية على هدف كهذا في خط الافق سهلة . انظر .

واطلق الطلقة الثانية .

شهق العجوز وارتمى على خاصرته مفلتاً حبل البقرة وسال الدم من عنقه غزيراً .

في اللحظة الاخيرة تذكر الفدائي . لن يراني حين يمر بالقرية . هل سيدفنونني ؟ لو كان هنا احد من القرية . هل ... ؟

كان الدم النازف من عنقه قد اختلط بالتراب تحته ، اختلج قليلاً فانجبل التراب الدامي على وجهه الذي انكفأ مع الشهقة الاخيرة .